

مسألة الحرية وقوة الرأي في المجال العام 1-2

عدا ذلك، فإن كل حديث خارج إطار هذه المسارات يعد ناقصا، وسوف نرى لاحقا التشويه الذي طال مقاربات من هذا القبيل، حين عولت كثيرا على قوة الرأي في الإعلام العربي، كي يرتقي بمجتمعاته تعليميا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا.

نعم لا يخفى على الجميع مظاهر هذا الارتقاء، لكن حدث ذلك بالاتجاه السلبي، وبدلا من وجود رأي مستقل نابع من فضاء حر يتصل بالشأن العام -كما هو الحال في الغرب- نجد فضاء من المؤسسات الإعلامية التي تهيمن تجاريا على رؤوس الأموال المدعومة بقوة من شركات احتكارية، خلفها مدعومة أيضا بقرارات سياسية، في عملية تواطئ، لا يخفى على الجميع الخسران الذي تجنيه المجتمعات العربية جراء هذا التواطئ.

ربما يعترض حديثنا أحدهم، ويقول: هذه ظاهرة بالأساس مجلوبة من الغرب من خلال طواهر عديدة، أبرزها سياسات العولمة، وتداعياتها على سلطة الدولة، وتفتت سلطة المجال العام وتحوله إلى سلطة هويات ثقافية متشعبة ومتفرقة على الجغرافيا والتاريخ.

لذلك لم يسلم جل المجتمعات من هذا التأثير، وانخرط أغلبها سواء على مستوى الدول أو المجتمعات في أتون سلطتها التي لا تقاوم.

لقد كان هذا صحيحا، لكن ينبغي أن ندرك أن ثمة فرقا كبيرا بين الغرب الذي يتحكم في نفسه، والغرب الذي لا يتحكم فيها.

الأولى هي صورة الميراث الفكري والفلسفي والعلمي الذي انحدر للمجتمعات الغربية، ومكتسبات هذا الموروث وأثره على تلك المجتمعات منذ ثلاثة قرون ماضية على الأقل.

وهي مكتسبات -اتفقنا معها أو اختلفنا- مازالت قيمها تشكل المرجعية لها في الأخلاق والثقافة والدين والاجتماع، يعتزون بها بقدر ما يمارسون عليها ضرباتهم النقدية القوية. هذه الصورة أو هذا الميراث نشأت في وسطه تلك المسارات الثلاثة التي أشرنا إليها: الدولة، المواطنة، المجال العام إزاء المجال الخاص.

ودون الدخول في تفاصيل تشكل هذه المسارات -التي ربما تخرجنا عن الموضوع- فإن الخلاصة التي يضعنا تاريخ هذه المسارات أمامها، وما انتهت إليه في قناعة الغربيين، هو أن حرية الرأي حقيقة مطلقة، وهذه الحرية تحديدا، لا يمكن النظر إليها من خارج علاقتها بالدولة من جهة، ومن خارج علاقتها بمفهوم المواطنة من جهة أخرى، حيث محتوى حركتها دائما يكون في المجال العام.

هذا هو تحديدا السياق العام الذي نشأ فيه وتربى عليه الأوروبيون في علاقتهم بحرية الرأي، ثم حدثت تحولات لاحقا منذ منتصف القرن العشرين الفائق، أوجدت ما يمكن تسميته انبعاث كل ما همشه ذلك الموروث، وحاول استبعاده عن مجال تفكيره وحياته على العموم.

وهنا الصورة الثانية التي نتحدث عنها، وهذا الانبعاث لم يكن من السهل التحكم فيه، كما هو حال التطور العلمي والتقني الذي اقتنع مفكرو الغرب وفلاسفته بأنه أصبح يتقن لعبة التطور الذاتي، الذي لا يمكن أن تكون مهارة الإنسان كافية في تدخله في تطوير هذه اللعبة.